في سن والدي

قصة بقلم غادة السمان

حديقة الفندق في تعب من نزف الافق ، الظلال الدامية تنسكب على الغابة الموحشة الهاجمة امامنا ، تتوهج فوق السيارات المصطفة في الساحة السفلى تلتهب بها وجوه النسوة ، تمتزج مع الحان العازفين العذبة في تهوية الهية يزحف الراقصون معها الى كهوف النشوة والسعادة .

امي جميلة في ثيابها السود ، صديقتها الثرثارة تحرك فكها الاسفل ويلوح لسانها النابض وكانه ذو شطرين . المقعد الذي اجلس عليه ملصق بالافريز الحديدي الملون ، وقريب جدا من سيارة بهاء .. قال انهما سيرحلان عند الغروب .. بعد لحظات ينطلقان الى حيث لا اراه ابدا ، كما مضى ابي منذ اشهر .. اعرف اين ذهب ابي ، استطيع ان انقل باقة البنفسج التي كان يحبها من غرفته الى قبره الرخامي .. اما بهاء .. فسيرحل مع الشمس الى حيث لم يلحق بها احد .

اه بضحكة عابثة انطلقت من مكان ما . تغيظني . لماذا يضحكون ؟ سيذهب الليلة .. كيف يرقصون ويغازلون ويتنزهون ؟ كيف تظل اغصان الياسمين تنفض شذاها كان شيئا لم يحدث ؟ وحيدة . العالم دوامة هازئة لا مبالية . الشمس تجوب مسالك جبال مجهولة . الليل ينفض دماءه السود . الخريف ينتشي في الظلمة ويزفر انفاسه في نسيمات باردة . ارتعد . انكمش في مقعدي . احب كبرياء الخريف واحتضاره الخفي . خريف بهاء ، كم احببته ! اعوامه الخمسة والاربعون كانت غلالة غموض عميق شدتني اليه منذ الوهلة الاولى .. منذ اومأت امي الى رجل يمشي في صالة الفندق قائلة : « هذا احد اصدقاء والدك الذين اضاعوا شبابهم في اللهو والتنقل » . وسمعت فحيح صديقة امي يهمس : « لا ريب في انه اختار هذا المصيف المنعزل ليلتقي باحدى عشيقاته .. سمعت ان عشيقته الاخيرة شقراء .. انه يتجه نحونا ..»

سكتت عندما مد يده يحيينا ، صافحته امي بحزن اضافي كانما تريد ان توحي له بان وجوده ذكرها بالمرحوم والدي ، وبانه مدين لها بكمية لا باس من كلمات التعزية . لكن كلماته كانت مقتضبة . احسست انني امام انسان يكره التملق . يعرف جيدا كيف يدفن الماضي ببساطة ويهتم بالحاضر والمستقبل . وكنت انا المستقبل . جلس طيلة امسيته الاولى يداعبني ويحدثني كانني اعرفه قبل ان اولد . لم يكن كثير الحركة والقلق والضجيج كالشبان ، لكن صوته كان عميقا ناضجا مثقلا بالتجربة . حديثه الهب كل ثانية من ثواني اعوامي العشرين . ولما نهضت لانام ، كنت دغلا تتاجج مجاهله بعد ان عاش دهورا يبحث عن شمس ما .. ولما نبت مع الفجر بين اشجار الغاب ، في اليوم التالي ، قفزت من مقعدي في الحديقة لالقاه .. ولاسمع محاضرته عن فوائد النزهة المبكرة في الغابة .. لم اكن بحاجة الى اقناع ، كانت رؤيتي له كافية .. وكان الغاب خير رفيق .

لماذا لا تحدثني امي وتنقذني من خواطري ؟ ما بالها صامتة ؟ لماذا لا تروى لي ـ كعادتها طيلة الشهر الماضي ـ ذكرياتها مع ابي وبهاء في الايام الخوالي ؟ .. لماذا لا تقول لي بلهجة ذات معنى انه كان في الخامسة والعشرين من عمره يوم وضعتني ؟. انها صامتة كالموت .. تراها تعرف انني احب اعوامه الخمسة والاربعين ؟ لا احب الا اعوامه الخمسة والاربعين ، احب شعيراته البيض حين تسطع في اعماقي كابهى فجر .. واحب وجهه المجهد وحيويته الضائعة .. واحب سحابة الكابة المبهمة التي تلفه كلما جلس وحيدا ينتظرني ..

ابدا لم يقل ان ايامه مياه جدول تتكسر بين الصخور الصلدة باحثة عن ذرة تراب تسقيها .. عن شيء ما تخلقه وتبدعه ... ابدا لم يقل ان لهوه وعبثه يمزقانه .. لكنني فهمت كل شيء ليلة تاملته وهو يجلس وحيدا في الحديقة .

كانت ليلة هاربة من كهوف الشتاء ، لذا اوى النزلاء الى غرفهم مع خيوط الظلام الاولى . لم يكن يدري ان احدا يرقبه ، كان يحدق الى طير يقفز بحنو حول عصفور صغير خذلته اجنحته الفتية .. اهتمام ملتاع عجيب رقص في عينيه .. شيء لزج كالدمع تشبث بمقلتيه ، تنهد بارتياح عندما تمالك العصفور الوليد نفسه وحوم من جديد بينما الطير الكبير يعلو ويهبط حوله بخرص البخيل ، نادى خادم الفندق ، طلب منه فنجاني قهوة ، اتى بهما الخادم وهو يلتفت حوله متعجبا ، اخذ بهاء يعب من الاول بينما ازاح الثاني الى الجهة المقابلة من المنضدة امام المقعد الخالي تجاهه ، خيل الي ان ابخرة الفنجان المهجور كانت تمس اعماقه بدفء مبهم. لم اخيب امله . جلست امامه ، احسست بانه تضايق . لا يريد ان افاجئه واتامله . اعماقه في تلك اللحظة عارية ، ابدا لم تكتشف مجاهلها وشطآنها البنفسجية امراة .. وتاملته بفضول والم وتحد .. ابدا لن انسى وجهه .. كان عميق الحزن صامت الحزن كابدع واسمى خريف . الامه المبهمة تطل بسمو كقمة جبل بعيد تلفها غلالات ضباب هادئة كالكبرياء . وكان وجهه نديا كروض عبثت به زخات الخريف المنعشة . خيل الي انه يبكي بمسامه ، يبكي بكل حواسه ، ينضح عذاباته بصمت السنديان . لم اقل شيئا . ظللت صامته . بعد دقائق سالني :

ـ هل يضايقك صمتي ؟

اجبته ـ ما احلى الكلمات التي لا نقولها عندما نحس ان الحرف عاجز عن استيعاب انفعالاتنا ...

وانقضت فترة صمت اخرى قبل ان يهمس بصدق عجيب : « انا اتقن صناعة الكلام والغزل ، اما انت فسامنحك صمتي ، هل تقبلين ؟ » ..

لم اجب . لم اهرب بيدي من اتون يده عندما اطبقت عليها دافئة حانية ، منجدة مستنجدة كشفاه ظمأى ..

ولما عاتبتني امي ليلا لم اغضب . ولما ذكرتني بانه كان في الخامسة والعشرين من عمره يوم ولدت احسست بالزهو والسعادة . قبلتها فجاة وانا اقول : احب الخريف يا امي ... ولما مضيت الى فراشي لم انم ، دخلت بعد ساعتين وكانها تعرف انني لم انم ، قبلتني بحنان عميق ايقظ مخاوفي ، تمسكت بوسادتي وطلبت منها ان تفتح النافذة لتدخل رائحة الخريف .. لم تقل شيئا فايقنت انها فهمت كل شيء .

لماذا استعيد هذا كله ؟. نظراتي معلقة بالباب الكبير . بعد

لحظات يهبط ليرحل مع شقرائه .. ابدا لم يحبني . كان ينتظرها . كنت دميته الصغيرة . لا لم اكن دميته الصغيرة . لماذا اخدع نفسي ؟؟ كنت شيئا ما في وجوده . والا فلماذا جمدنا منذ ايام حينما كنا عائدين من الغاب ؟ لماذا وقف كتمثال عذاب صلد عندما دخلنا الصالة واطلت علينا ساعة الفندق العتيقة كشيطان شامت ؟ .. كانت قضبان غطائها الخشبي انيابا سوداء حانقة . كانت تدق ببلاهة .. بلا توقف .. ضحكاتنا خبث . الاخاديد في خديه ازدادت عمقا . احسست اننا نتقلص والساعة تتسع ، ودقاتها تعلو ، نتقلص . الصالة تظلم . جدرانها ترتفع ، تغيب في السماء . السماء ضيقة وصغيرة وبلا نجوم . الساعة تقول . نتقلص . نحن جرذان في ارض صديدية عفنة . الساعة اله وتني اسنانه السود لاتشبع ، مددت يدي ابحث عن يده . وجدتها متعبة مسترخية بجانبه . امسكت بها . كل شيء في مكانه وصديقة امي اللجوج تلقي علينا تحية الصباح بلهجة ذات معنى ، قال بخشونة فجاة : « لن اراقصك الليلة . انني متعب » لم اجب . اضاف كانه يعذب نفسه : « انت طفلة وشابة لا تتعبين .. اما انا فقد هرمت .. لا تنسي هذا » ..

امي تبدو الليلة مضطربة . ترافقني من طرف خفي ولا تجد شيئا .. لماذا لا تثرثر صديقتها الليلة كالعادة ؟ .. في وجهها ظلال اسف تكسوها بمسحة انسانية لم الحظها من قبل . ماذا حدث لهما ؟ تنتفضان . ها هو بهاء يحمل احدى حقائبه ويقترب . الشقراء التي وصلت الى الفندق صباح اليوم تسير الى جانبه . غيوم في اعماقي . الرعب . التحدي . المصير . لماذا هرب ؟ صواعق الشتاء تزحف وصقيعه كذلك . لماذا يهرب الخريف ؟ فتحنا له نوافذنا وادخالنا .. لماذا يهرب ؟ مواقد الشتاء تملا اعماقنا بالدخان . الدخان يلون كل شيء . الموسيقى والالوان والناس يغوصون .لاشيء سوى عينيه . يقف امامي مودعا . يده تضم يدي بلهفة . امي تبكي . لا اعتقد ان ذكرى ابي هي السبب . نظراتي تتشبث بوجهه في تمزق يائس .. عشيقته وقفت جانبا . اسلاك شعرها الشقر تغوص في خدي .. وجهه يملا الكون كله .. وجهه يغطي السماء والوجود بعوالم جديدة من قلق واستسلام وغربة . شفق في عينيه . وجهه يتقلص . الاسلاك الشقر تبدو من جديد . الضجيج يمد زعانفه وامي تصافحه بحقد مبهم . لا تتقبل تعزيته ببهجة سادية كعادتها . صديقتها اللجوج تناول عشيقته بحقد امراة ! لم اكن اصدق ان مثل هذه المخلوقة تستطيع ان تحقد . يهبطان الى الساحة. الاضواء تنزلق عن وجهه عندما يغيبه جوف سيارته . لا اراهما . انها تلتصق به . تحتل مكاني بجانبه . غيمات حنان عينيه تمطرها اطمئنانا وسعادة . الاسفلت يركض تحت العجلات . الظلمة تبتلعهما بنهم . الموسيقى حولي تستحيل عويلا . الاحذية تقفز ... تدور . كعوبها الحديدية تدق فوق دماغي .. تنغرس في راسي .. الساعة تلوح من بعيد .. تقترب . اسنانها الخشبية تريد ان تمضغني .. المقعد يدفعني عنه ، انطلق . اصطدم بالراقصين . يقفون في وجهي . يحجزونني كي يمضغني شيطان الساعة العتيقة . اختنق. ادافع عن نفسي كوحش سلطت على جراحه اضواء العالم كلها . اكافح . اسبح في المحيط الادمي المتطلاطم . يفسحون لي مكانا.

اظل انطلق الى غرفتي . الى شرفتي التي تطل على الوادي ... لا ضجيج .. لا انسان .. لا احد يحس معي ، الوادي يلوح عميقا حزينا خفي القاع ، عالم من خريف وغموض وظلال ، عالم من كبرياء وصمت . لو اهوي فجاة ! اتقلب بذعر ثم استسلم للفضاء . امتزج بالعاصفة والطين والاجواء . انا ذرة دنسة مدارها معزول في فلك من وحشة وعويل ، لا صديق . عواء بعيد حزين ملتاع يصعد الي من الوادي العميق . انه ابن اوى . ينتحب في انات انسانية . يناديني .. لو اهوى الى جانبه .. فيتناثر جسدي قطعا دافئة تظل تنتفض حتى تذوب في الخريف ... يلعق ابن اوى جراحها بحنان . انا معبد خوف وشوق واشمئزاز ، لو اهوي!

يد على كتفي . امي تضمني اليها . ادفن وجهي في صدرها وانشج ببؤس ممزق . تقول لي بتعاسة حقيقة : في البداية خشيت عليك من خداعه .. ولكني خشيت عليك اكثر من صدقه ...

لا اجيب . اظل انشج . ابلل صدرها باساي المفجع ، تضمني بحنان وتقول : « هذه ليست نهاية العالم .. انت شابة وغدا » . واقاطعها بتحد ومكابرة انا اردد : مالي وله ؟ من قال انني احببته انه في سن والدي .. في سن والدي .... .

من قال انني احببته ؟

دمشق

غاده السمان

دار الاداب تقدم

سلسلة الجوائز العالمية

أروع الروايات التي فازت بجوائز عالمية وترجمت الى عدة لغات ، ولا غنى للقارىء العربي ، اذا اراد ان يستكمل ثقافته الادبية ، من الاطلاع عليها .

ويسر « دار الاداب » في بيروت ان تطلع بهذه المهمة ، فتقدم قريبا جدا ، وبالتتالي ، حلقات هذه السلسلة ،مترجمة الى العربية ترجمة دقيقة امينة باخراج انيق .

ترقبوا الاعلان عنها

في اعدادنا القادمة